

الأغراض الشعرية عند محمود سامي البارودي

د. آسية جلنلي اغلو

Dr. Asiye ÇELENLIOĞLU

إسطنبول / تركيا

الملخص:

يعد محمود سامي البارودي (1838. 1904 م) رائد الشعر العربي الحديث. نشأ في عصر انقطعت فيه الصلة بين الشعراء وأسلافهم القدماء إنقطاعاً أبعد أشعارهم عن كل جمال وبهاء. فأول الأمر كانت جهود البارودي مكثفة في بعث الشعر الجاهلي. وهو كتب كما كتب شعراء الجاهلين من المدح والهجاء والغزل والرثاء. ولكن تميزت أشعاره بأنه ما مدح أو هجا إلا لمصلحة المجتمع الذي عاش فيه. خصوصاً بعد ثورة عرابي باشا وقضاء فترة من عمره في المنفى إستلهم موضوعات شعره بما يعيشه المجتمع من مشاكل الحياة. كتب عن أحداث عصره السياسة والاجتماعية محاولاً إرجاع الشعر العربي إلى أيامه اللامعة وبذلك إحتل البارودي المرتبة الأولى بين الشعراء في عصره. لأنه لم يعد الشعر إلى منبعه بأسلوبه فقط بل إستعمل موهبته الشعرية ليعبر عن مشكلات مجتمعه . يتناول هذا المقال مكانته الشعرية ليظهر لماذا هو رائد الشعر العربي.

الكلمات المفتاحية: رائد، الشعر الحديث ، مصلحة المجتمع، الجديد في الشعر.

Abstract:

Mahmûd Sâmî al-Bârûdî was a significant Egyptian political figure and a prominent poet in modern Egyptian literature. al-Bârûdî managed to combine a return to the purity of diction, the forceful expression and the classicism of the Abbasids with the ability to express his own individual experience often. He used events of his life as material for his poems to a remarkable degree. After unsuccessful Urâbî rebellion he was exiled and Bârûdî criticized the issues of politics and Egyptian people. He has an important place in Egyptian poetry because he tried to convert poetry to old form and source, while he was expressing the social issues of Egypt. That is why Arab critics and historians of literature are generally agreed that it is with al-Bârûdî that the renaissance of modern Arabic poetry truly begins.

This study reveals Bârûdî's place in poetry and explains why he was the pioneer of modern Egyptian poetry

Key Words: al-Bârûdî, Egypt, Poetry, Social, Criticism

*** **

التمهيد

يعتبر البارودي رائداً من قبل مؤرخي تاريخ الادب. هناك كثير من العوامل جعلت البارودي رائد الشعر العربي الحديث. كل هذه العوامل تؤثر في شخصيته وتصلق نفسه و عواطفه، و أفكاره. إن جهود البارودي المكثفة لانارة عصره بالشعر الجاهلي والاستعانة به للتعبير عن احداثه ومشكلات امته نضجت واصبح البارودي ممثل عصر النهضة والمثل الاعلى لمن جاء بعده من الشعراء. على كل قارئ يريد أن يفهم اشعاره وأفكاره، أن يدرس شخصيته و يعلم كل جزء ساهم في شاعريته. لذا سيتناول هذا المقال أولاً البيئة السياسية ثم أشعاره. وهذا سيبين سبب تسميته رائداً.

حياته

ولد محمود سامي بن حسن حسين بن عبدالله شركسى في القاهرة من أب ينتهي نسبه الي المماليك الجراكسة. جاءت شهرة البارودي نسبة الى بلدة أيتاي البارود التابعة لمحافظة البحيرة حيث ان اجداده كانوا ملتزمي اقطاعية في تلك البلدة ويجمعون الضرائب من اهلها وكان كل ملتزم ينسب في ذلك العهد الى مكان التزامه. 1

وقد اصبح يتيما وهو في السابعة من عمره، فعنى بعض أهله بتعليمه، و التحق بالمدارس الحربية فخرج منها ضابط متقنا الفنون الحربية ومع ذلك كان مولعا بالادب والمطالعة. فقرأ دواوين الشعراء وخالط من عاصره من الادباء، فقويت شاعريته واستقام لسانه علي الفصاحة. فنظم الشعر وهو في نحو العشرين من عمره. 2

ثم بدأ يضرب الآفاق فرحل الى استانبول و أتقن فيها اللغة التركية والفارسية. إتصل فيها بالخدوي اسماعيل فعاد به الي مصر والحقه بالجيش. ثم سافر الي فرنسا وانكلترا للاطلاع علي النظم العسكرية، وإشترك مع العثمانيين في حروبهم ضد البلقان. 3



ترقى بخدماته الوطنية الى المناصب العسكرية و الإدارية حتى بلغ نظارة الاوقاف والجهادية بل رأس النظارة بعد سقوط شريف باشا. ولما شبت الثورة العربية⁴ التحق بها، وقد نفي مع الثائرين الي جزيرة سرنديب . فمكث في منفاه سبعة عشر عاما انشغل في اثنائها عل تعلم الانكليزية ومراسلة الادباء . وكان يعبر عن خواطره وأشجانه وذكرياته بشعر جميل يواسي فيها نفسه ويهدى إلى عصره و يساهم في نهوض الشعر العربي. ثم عاد الي مصر بناء علي طلب الخديوي عباس الثاني وعاش فيها لمدة خمس سنين علي النظم والجمع والمطالعة الي ان توفي سنة 1904⁵.

للبارودي ديوان شعر⁶، يتضمن قصائد في المدح والنسيب والفخر والحماسة والسياسة والاجتماع. عكف على تنقيحه وتربيته، وشرح غريبه، والتعليق عليه قبل وفاته. وقد طبع عدة مرات، وأشهر طبعاته تلك التي عني بإخراجها وشرحها الأستاذان علي الجارم ومحمد شفيق معروف. يتكون الكتاب من 731 صفحة ويوجد فيها مقدمة للدكتور محمد حسين هيكل يتناول فيها حياة البارودي ويرد الاتهامات التي توجه اليه عن محاكاته للشعراء القدماء ويقدم في هذا الكتاب الاشعار تحت عناوين القوافي التي كتب البارودي به. ظهرت للمرة الأولى سنة 1940.

وخلف البارودي كذلك "مختارات البارودي"⁷ جمعها من آثار ثلاثين شاعرا من كبار الشعراء المولدين ، ورتبها علي سبعة ابواب هي: الأدب، والمديح، والثناء و الصفات و النسيب، والهجاء، والزهد. وفي كل باب من هذه الأبواب يقدم أشعار الشعراء بأسمائهم تحت عنوان " مختار شعر الطغرائي الخ" ويتكون هذا الكتاب من اربعة مجلدات. وإن له مختارات في النثر سماها "فيد الأوابد" جمع فيها عيون الرسائل والخطاب والتوقيعات. بيد أن هذه المجموعة ما طبعت ولا تزال في حاجة الى من يبعثها الي الهيئة.

البيئة السياسية والادبية التي عاش فيها

إن أفكار الشعراء تتغذى سياسيا وسوسولوجيا ونفسيا بأحداث المجتمع الذي ينتهي إليه. ويؤثر كلما حدث في العالم الظاهر في نفس الشاعر. لذا نريد أولا

ان نجعل البيئتين السياسية والثقافية ظاهرتين. لأنهما السببان المأهبان شخصية البارودي الشعرية.

وولد البارودي بعد حوالي نصف عصر من احتلال نابليون لمصر. بالنسبة لمعظم مؤرخي الادب يبدأ العصر الحديث بهذا الإحتلال (1789) وسبب تسمية هذه الفترة بهذا الاسم هي الروابط التاريخية بين الحلقات وتسمية ما قبل هذا العصر "بعصر الانحطاط".⁸ و كان الحكم في هذا العصر بيد المغول.⁸ بالنسبة للمؤرخين تراجع الادب العربي نثرا وشعرا. ولم يظهر اي اديب او شاعر كبير قياسا مع العصور الماضية.⁹

يوافق المؤرخون على مبدأ الادب العربي الحديث ولكن يختلفون بإعتبار أن هذا المبدأ من حيث كونه القوة المحركة أو كونه الباب المفتوح على الحضارة الغربية. إذ يعتبر البعض هذا التاريخ بأنه مبدأ التعرف علي ما ليس لهم حتي الان من مدارس وجرائد ومسرح للتمثيل ومجمعا علميا ومكتبة ومعمل كيميائي ومراصد فلكية.¹⁰ وبعضهم يعدونه بأنه أثار في مصر ما كمن من عناصر القوة. فقد إتخذت الحملة الفرنسية من العلم أسلحة ضمن أسلحتها. من هنا لم يكن لها تأثير في وصول المصريين الى الثقافة الاوربية وبخاصة الثقافة الأدبية و إنما إقتصر تأثير كل هذه المظاهر على الإثارة و الإيقاظ، حتى أحس البعض بوجود التغيير وبتطلع الي التسليح بوسائل أفضل وهذا ما عبر عنه الشيخ حسن العطار بقوله حينذاك: إن بلادنا لا بد أن تتغير احوالها ويتجدد ما بها من العلوم والمعارف.¹¹ وأهم شيء قام به نابليون هو انشاء مجالس شورى سميت باسم الدواوين. تعد هذه المجالس نواة الحركة القومية التي ظهرت في أواخر قرن التاسع عشر. وعلى الرغم من قصر المدة التي أمضتها هذه الحملة في مصر نراها تخلف وراءها أثارا كبيرة بعضها يرتبط بالحياة الفكرية وبعضها يرتبط بمستقبل مصر السياسي.

بعد نابليون تولى الحكم محمد علي (1849) بعد محاولات دامت أربع سنوات وقد أسهم في عملية النهضة بإصلاحاته إسهاما كبيرا. ولكن خلال فترة عباس وسعيد الخديوى التي إستمرت ستة عشر سنة في مجملها لم تكن مؤثرة في عملية النهضة. أما اسماعيل فهو كان حاكما يؤيد النهضة بتنفيذاته الاصلاحية. أسس في عهده كلية الاداب في جامعة ازهر وفي جامعة مصر. ولكن كل هذه

الإصلاحات زادت الديون الخارجية. ولسد هذه الديون قام بفرض الضرائب وسرح العمال من أعمالهم لتنقيص المصاريف، وقيامه بهذه الخطوة كان السبب في إنديلاخ ثورة عرابي(1882)¹² و بهذه اليقظة السياسية ظهر الادباء والشعراء الذين يتناولون في أثارهم القومية إستقلال بلادهم والنجاة من الخضوع للقوى الخارجية. ابتداء من الطهطاوي(م 1873) حتى محمود سامي البارودي (م1904) وإسماعيل صبري (م 1928) واحمد شوقي(م 1932)هاؤلاء الذين يعدون رواد النهضة و عبروا في ما كتبوا عن هذه اليقظة.

كل هذه التطورات الثقافية والسياسية مهد للنمو الذهني الذي تحتاج اليه نهضة الادب العربي. وهكذا بعد ثورة عرابي باشا اختلف الادب عن الأدب الذي افتقر تعبيره وبدأ يتناول الحياة من كل جوانبها ويتشبه بالاثار القديمة من حيث اسلوبه. إن روح بارودي تأثرت بهذه البيئة السياسية والفكرية وأنشد أشعاره بهذه الروح.

ليس من شك في أن العوامل المختلفة التي نمت الوعي وأنضجته، كانت ذات اثر واضح في أدب تلك الفترة، كما كان للوعي نفسه أعظم الاثر في خروج الادب من طور الي طور و إنتقاله إلي مرحلة جديدة ذات سمات واضحة. إن كل هذه العوامل أجلت اللغة وهذبها وفتحت لها ميادين وغذتها بموضوعات وأفكار و قضايا ومنحتها قابلية التعبير عن كثير من النواحي الفكرية والوجدانية. كذلك حمل الوعي على عاتقه البحث عن التراث ونفض الغبار عن روائعه. وكان لإحياء التراث على هذا النحو أثر كبير في إخراج الادب من عصور الظلمات الي عصور النور.¹³

لم يكن من الممكن أن يتخلى الشعراء عن الطريقة التقليدية التي غلبت في الفترة السابقة. لأن كثيرا منهم عاشوا على تراث الفترة السابقة ولذا لم يؤثر في تلك الفترة كثيرا عليهم. استمروا ينشدون الشعر وسيلة لكسب العيش. ولم يحققوا تطورا يذكر في ميدان الشعر.¹⁴

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الطائفة من الشعراء ترتبط بالإتجاه التقليدي على اختلاف درجة تعلقهم بهذا الاتجاه ومع اتضاح بعض ملامح التجديد عند البعض، كانت طائفة أخرى من الشعراء قد نما وعمها أكثر، فاشدت

كرهها للإتجاه التقليدي ورأت هذه الطائفة أن المثل الشعري ليس ما خلفته
عصور التخلف وأن التشبث بالألعاب اللغوية والمحسنات البيديعية، يجعل
حقيقة الشعر تفلت من قبضة الشاعر.

وقد تميزت هذه الطائفة بامتلاكها شيئين لا تمتلكهما الطائفة الأولى، الأول
هو عدم الإلحاح للتكسب بالشعر، تلك الآفة التي من شأنها أن تجعل
الشعري نشد من أجل حاكم أو غني، وتجعل الشاعر يقول ما لا يرضي نفسه بل
لإرضاء الحاكم أو ولي النعمة، أما الثاني فهو البعد عن الثقافة التقليدية، و
القرب الشديد من الثقافة الحديثة، هذا بالإضافة إلى الاتصال القوي بألوان من
الحياة الحضارية، إن اندماج الوعي و التقدم مع هذان العاملان جعل الشعراء
يبحثون عن المثل الأعلى، ولم يكن من المستطاع أن يتخذوا الشعر الأوربي المثل
الأعلى لسبب يرتبط بمعاملتهم العدوانية في كثير من مظاهر الحياة المصرية ولم
يكن كافيا ما تم ترجمته إلى اللغة العربية. وهكذا لم يكن أمام هؤلاء الشعراء
الواعين سوى الرجوع إلى الشعر العربي القديم، وكان ذلك متفقا تماما مع الروح
الواعية، الباحثة عن أمجاد الماضي العربي المشرق.¹⁵

أراد المجددون من الشعراء في القرن التاسع عشر الميلادي أن يعبروا
مسافة التخلف الواسعة في عصر الانحطاط بالارتداد إلى ينباع الأولى للشعر
العربي وخاصة مرحلة الإزدهار العباسي، وقد أتاح لهم النضج الثقافي في عصرهم
الإطلاع على دواوين الشعراء العظام فانكبوا عليها يستوحونها، ويجعلونها نماذج
أمام أعينهم يعارضونها ويتمرسون بأساليبها العربية النقية الخالية من بهرجة
الصناعة و التكلف ويستلهمون موضوعاتها وبما يشغلهم من أمور أنفسهم و
مشكلات حياتهم المعاصرة.

ويعد محمود سامي البارودي (1904م) رائد هذا الإتجاه الذي أعاد إلى
الشعر الأصيل نبض الحياة من جديد. فقد استطاع أن يرتفع ببنائه الشعري
بمحاكاته نماذج الأقدمين، كما استطاع في الوقت ذاته أن يعبر عن نفسه وتجارب
حياته مذ كان ضابطا صغيرا يشارك في الحروب، حتى أصبح احد زعماء الثورة
العربية وانتهى به فشل الثورة إلى نفيه بعيدا عن أرض الوطن وعن أهله وأحبائه
سبعة عشر عاما. وأتاحت له كل هذه التجارب الفنية فترة من التأمل و انفعالا

وجدانيا صادقا ، وبعدا عن المحاكاة الآلية للنماذج العظيمة التي استوعبها ونجح في النسج على منوالها.¹⁶

ويرى البارودي أن وظيفة الشعر هي "تهذيب النفوس، وتدريب الأفهام ، وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق" إن أهم شيء يجعل البارودي رائدا هو اتخاذ الشعر وسيلة لبعث الشعر العربي وإحياء الوعي العربي. وقد بدأ بتنظيم الشعر محاكيا القدماء ثم جعل من الشعر وسيلة للوعي. وهذا هو القديم والجديد في شعره.

منزلته الشعرية

يرى البارودي ان وظيفة الشعر هي " تهذيب النفوس، وتدريب الأفهام، وتنبيه الخواطر الى مكارم الاخلاق". ومن خلال هذا التعبير المعجز يعبر عن مذهبه الشعري. فإن البارودي كان من المؤمنين بأن الفن تهذيب و صقل ، وجهد متصل، وتحسين مستمر، وان الطبع لا يكفي، ولذلك كان يعتمد في شعره على تهذيب والرعاية.¹⁷

يمكن تناول أشعار البارودي تحت عنوانين. لأنه في البداية و بعد مباحثات المثل الاعلى كتب محاكيا الشعراء العظماء من بينهم البحترى وأبو تمام والمتنبي وبشار وأمثالهم¹⁸. ولكن ليس معنى هذا أنه لم يجدد في أغراضه، وإنما كان واضح الشخصية في كثير من هذه الموضوعات. فهو يمثل نفسه، وزمنه، و بيئته، في قصائد شتى وكانت اغراض شعره مثلما كانت قديما ولكن هجوه ومدحه كان لمصلحة المجتمع.

القديم في شعره :

ترجع معظم ثقافة البارودي الى مطالعته الدواوين الشعرية لمشاهير الشعراء وقد انتبه للكثير من روائعها وتراكيبها والفاظها. ولم يعن بكتب اللغة، ولا تلقن قواعد الاعراب، بل تصورت له بعد ان اكثر من القراءة و الاستماع الى هيئات التراكيب العربية، ومواقع المرفوعات و المنصوبات و المخفوضات، فصار يقرأ وينشد ولا يكاد يلحن.¹⁹

ومما لاشك فيه أن شعره كان له الحظ الأوفر في هذه التربية وذلك الغرس، لأنه استطاع أن يقدم به الأمثلة القويمة التي تدفع الشعراء من حوله ومن بعده

لمجاراته، ذلك أنه احتوى لنفسه عناصر الشعر القديم، ومضى يمد طنمها ويوسع في جنباتها، ليصب فيها صورة نفسه وصورة بيئته و عصره²⁰، فإنه لا يقف عند لغة شعر القديم، ولا عند ديباجته بل شمل موضوعاته ومعانيه وصوره وما جرى على ألسنة الشعراء من خواطر ومن تشبيهات وإستعارات ، كأنما بعث اسلافه من العرب الاولين بمعيشتهم الصحراوية بين الكثبان والرمال والغزلان تحت ضوء نجوم البادية، وريح الصبا تهب عليهم فتملاً قلوبهم بالحنين، وفي ذلك يقول واصفا إحدى قصائده المبكرة :

حضارية الأنساب إلا أنها بدوية في الطبع والتركيب²¹

لكن استخدام البارودي للعناصر البدوية القديمة يخالف استخدام القدماء، ذلك ان تلك العناصر كانت تراد لذاتها قديما، أما عند البارودي فكانت تستخدم رمزا للتعبير عن مشاعرهم، واحاسيسهم تعبيرا يستمد من جلال القديم ومن جماله الفطري وتلك الروعة التي تشد النفس العربية . فهي مهما أوغلت في التحضروالحدائثة لاتفتأ تنظر الى ذلك القديم باحثه فيه عن شئ ما تفتقد اليه. إنه سحر البيان و اللغة الذي يتميز به القدماء .

العناصر القديمة في شعره:

الوقوف على الأطلال

نرى الباردي انه يقف احيانا على الاطلال والدمن مثلما كان شعراء الجاهلين . رغم أن بيئته تختلف عن البيئة التي عاشوا فيها وينشدوا اشعارهم ولكنه يريد ان يمتحن شاعريته وهل يمكنه أن يحاكي القدماء في وقوفهم على الاطلال والدمن²²:

فيا ليت أن العهد باقٍ وأنا دوارج في غُفْلٍ من العليشٍ خاملٍ
تمر بنا رُعيان كل قبيلة فما يمنحونا غير نظرةٍ غافلٍ
صغيرين لم يذهب بنا الظن مذهباً بعيداً، ولم يسمع لنا بطوائف
نسير إذا ما القوم ساروا غدية الى كل بهم رانعات وجامل²³
النسيب

وصف المرأة في النسب يعتمد على التشبيهات القديمة المحفوظة، فهي تحكي الظبي في كناسه، والبرد في سمائه، وهي المهابة، وأحاطها سيوف باترات، وقدها غصن يتثنى ... إلخ هذه القواليب الموروثة.²⁴

ويصف المرأة وصفا ماديا كما كان يفعل القدماء، وكأنها تباع وتشتري:
 خَفَّتْ معاطفها، لكن روادفها بمثل ما حملتني في الهوى رجحت
 ويلاه من لحظها الفَتَاكُ إن نظرتْ وَأَه من قَدَّها العَسَّالُ إن سَنَحَتْ
 كالبدْر إن سفرت والظَّبْيِ إن نظرت والغصن إن خطرت والزَّهر إن نَفَحَتْ²⁵
 شعر الصنعة

البارودي الذي حاكي فحول الشعراء حتى الجاهليين منهم ، يقلد شعراء الصنعة، وعصر الضعف، فيؤرخ أحيانا في شعره كما أرخوا. وإن كان قليلا ما فعل حتى لا يكاد يذكر. فمن ذلك قوله يؤرخ عودة (إسماعيل باشا) خديوي مصر من دار الخلافة سنة 1289 م .

رجع الخديو لمصره	واتت طلائع نصره
وتهللت بقدمه	فرحا أسرة عصره
فلتبتهج أوطانه	بحلوله في قصره
وليشتهر تاريخه:	رجع الخديو لمصره ²⁶

واستعمل البارودي المحسنات البديعية أحيانا ، لاسيما الطباق في مثل قوله:

يموت قلبي ويحيا حيرة بوهدى في عالم الوجد إن صدتْ وإن جنحت²⁷
 المعاني والأغراض

حاكي الأقدمين في ذكره البرق وفي ذكر الحسب و النسب، فهذه الأشياء كانت مشهورة في الشعر القديم لأنها تصف البيئة العربية، والغيث، والبرق، كان فيهما حياة العرب القاطنين بالجزيرة، فإذا ما لمع البرق أو هطلت السحب هلل الناس وفرحوا، وإذا ذكر المحب محبوبته في ذلك الوقت فكأنه يريد أن يشاركها سرورها، أو تشاركه سروره، والسرور من الأشياء التي لاتتم إلا إذا اقتسمها الإنسان مع سواه.²⁸

أما في بيئة البارودي فليس لهذه الأشياء من التأثير والاهتمام ما يدعو لذكرها، بل قد يسبب المطرلهم من المضايقات خاصة لأهل القاهرة الذين يعتمدون على النيل، ولأهل الريف لما يحدثه من ضرر لزرعهم لذلك فهم يذكرونه بشر، ولكنه التقليد القديم، ففى قولهم:(على حسرات):يعنى أنه حين تغيب الشمس تكثر همومهم، وكأنهم يتقلبون على حسرات، لأن الليل مصدر للذكريات ولفراغ الإنسان من الشواغل والأعمال وقديما قال النابغة :

وصدرأراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وفي الفخر يذكر البارودي العمدة المرفوعة وهي في القاهرة ، ويذكر النار في عادات البدو ، لا سيما في الجاهلية إذ كانوا يشبونها على يفاع من الأرض كي يهتدي بها الساري ، ويلجأ إليها الجائع ويطلب القرى.²⁹ كثيرا ما يردد البارودي في اشعاره المعانى القديمة المعروفة المشهورة. ولايعنى هذا أن البارودي لم يجدد في شعره وفي معانيه ، بل له تجديد ملحوظ في شعره.

الجديد في شعره :

بدأ البارودي مسيرته الطويلة في نهضة الشعر العربي محاكيا القدماء كي ينفذ الغبار عن غلافه.و عندما غابت الركافة عن الشعر ونجى من القيود بدأ يضيف الى الشعر روح عصره ومشكلاته ، فالبيئة التي عاش فيها وما حدث بها أثرت روحه فتحول الشعر بلسانه الى صيحة يريد بها إنقاذ مجتمعه.

لم يكن تقليد البارودي سوى وسيلة لخدمة الادب، ومجازاة العصر الناهض، ولذلك فقد كان في طليعة الذين ادركوا أن للادب وللعصر حقا على شعرهم، وأن الاعتماد على الاقدمين لايفرض عليهم التقيد بهم كل التقيد. فإذا ما صرفنا النظر عن الموضوعات التي إقتضى بها حكم المجازاة، نجد في ديوانه كثيرا من اغراض المحدثين، والاساليب المبتكرة، مما يدل على أن البارودي يمثل شخصية عصره، وشخصية الطبيعة التي عاش فيها.

لا يخفى علينا ان للبارودي القدرة علي تصوير نفسه، و القدرة أيضا على تصوير العصر الذي عاش فيه. ولقد تمثل ذلك في رثائه ومديحه بعض الاحداث العرضية ، كذلك تمثلت في أوصافه حركة النهضة الآلية، وفي اجتماعاته حركة

النهضة القومية المرتكزة على الحروب و الثورات وترميم الاخلاق. فتنوع شعره بوصف الكهرياء، والقاطرات، والسجون، والآثار المصرية، ووصف المشاهد الحربية. فكان ذلك وصفا جديدا في الادب، يستمد قيمته من الملاحظة الشخصية، واللون المستحدث، والتشبيه المنتزع من قلب الحقيقة.

صور البارودي في حماسياته وتحريضاته آمال الأمة و عطشها الى الحرية، ومحبته للعدالة وللشورى والمساواة، فاتحا بذلك على غيره من سابقى شعراء عصره ووطنه بابا واسعا لحافظ وشوقي وغيرهما من ممثلي الروح الوطنية.³⁰

الوصف

لقد كان الوصف من الاعراض القديمة ، وما من شاعر إلا له في الوصف أبيات وقصائد ولكن الجديد في وصف البارودي أنه أفرد له قصائد بعينها ولم يأت به عرضا في ثنايا القصائد. فكان يصف لمجرد الوصف، ولأن شاعريته وحواسه المرهفة، وتذوقه الحاد للجمال كانت تدفعه الى قول الشعر، والى وصف مشاهداته لا كما هي في الطبيعة، ولكن ليخرجها ملونة بشخصيته وشعره وأفكاره. وصف البارودي مظاهر الطبيعة ومناظر الريف كما وصف كثيرا من الأشياء كالسجن، والقطار، والخمر وغير ذلك.

أرعى الكواكب في السماء كأنّ لي عند النجوم زهينَةً لم تُدفع
 زُهرٌ تَألّقُ بالفضاء كأنها حَبَبٌ تَرَدّدُ في غدِيرٍ مُتَرَعٍ
 وكأنها حولِ المجرِّ حمائم بيض عكفُن على جوانبِ مشرع
 وتَرى التُّرَيّا في السماء كأنها حلقاتُ قُرْطٍ بِالْجُمَانِ مُرْصَعٍ
 بيضاء ناصعةٌ كبيض نعامةٍ في جوفِ أُدْحِيٍّ بأرضٍ بِلَقَعٍ
 وكأنها أُكْرُ تَوَقَّدُ نورها (بالكهرياء) في سماوةٍ مصنع
 والليل مرهوب الحميَّة قائم في مسجِه كالأهْبِ الْمُتَلَقِّعِ
 مُتَوَشِّحٌ بالنِّيَّراتِ كباسل من نسلِ حام ، باللجينِ مدرع
 حسب النجوم تخلفت عن أمره فوحى لهن من الهلالِ بإصبع³¹

وقد تميز البارودي في وصف الاشخاص ،وهذا من الموضوعات النادرة التي مہرفہا قلة من فحول الشعراء كابن الرومی ، وقد اجاد كذلك في وصف المعركة

كأنك تشاهد. وقد وصف البارودي بعض آثار مصر القديمة ، وفتح بذلك الطريق لشوقي وغيره.³²

الشعر السياسي

بدأ البارودي ينشد قصائده السياسية وهو على وشك الثلاثين من العمر. عندما كانت مصر تعاني من ثقل الديون الأجنبية التي كبلها بها الخدوي إسماعيل (1830. 1895) أثناء فترة حكمه ما بين (1863 . 1879) مما أدى الي خلعه عن العرش، حيث كانت كل من فرنسا وبريطانيا تتدخلان في شؤون مصر. وفي هذه الفترة السافرة من التدخل جعلت البارودي يترك حياة اللهو وما يتعلق بذلك من شعر الغزل و الخمر والجيد الحسان، لينظم شعرا يجابه به مشاكل الواقع، وفي هذا الصدد يقول :

فيا قوم هُبُّوا إنما العمر فرصة وفي الدهر طرق جَمَّةٌ و منافع
أَصْبِرًا على مسِّ الهوان وأنتم عديد الحَصَى إني إلى الله راجع
وكيف ترون الدُّلَّ دار إقامة وذلك فضل الله في الأرض واسع³³
ويلوح لنا أن البارودي كان بطبعه محبا للحرية متمردا على الظلم، شأنه شأن كل شجاع شريف. ولعل للوراثة ، وللنشأة أثرا في هذا، ولقد غذاهما ما حفظه من شعر الحماسة والقوة عند العرب. وقد قرأها البارودي وهو بعد شاب غريب، فرسخت هذه الصفات في ذهنه. وشب مطبوعا عليها يتمثلها نماذج يحتذيها، ويردها في شعره ويود أن يحققها عملا في الحياة ، ويقول :

لا عيب فيّ سوى حرية ملكتُ أعنِّي عن قبول الدُّلِّ بالمال
تَبِعْتُ خُطَّةَ آبائي فسِرْتُ بها على وتيرة آداب و أسال³⁴
ويقول:

دع الدُّلَّ في الدنيا لمن خاف حَتْفَهُ فللموت خير من حياة على أذى³⁵
وكان البارودي من أوائل الشعراء الذين تغنوا بمصر وأهلها، وحرصوا على خيرها ونفعها. إنه يمثل بشعره في مصر روح القومية الجديدة التي سرت في شعوب الأرض وجعلتهم يطالبون بالحرية والاستقلال، و يشيدون بأوطانهم ويتغنون بمآثر قومهم. وقد تمثلت هذه الروح في البارودي من غير انتظار، وعلى

غير سابقة من شعراء وطنه وزمنه، وبهذا احتل البارودي مكانة لاتداني في الشعر الحديث، هي مكانة المجدد، والباعث.³⁶

فيا مصر مدّ الله ظلك وارْتَوَى
ولا بَرِحْتَ تَمْتار منكَ يدُ الصِّبَا
فَأَنْتِ حِي قومي ، وَمَشَعْبُ أُسْرَتِي
بلادها حلّ الشباب تمائي
تَرَكَتْ بها أهلا كراما وجيرةً
هجرت لذيد العيش بعد فراقهم
تَرَكَ بِسَلْسَال من النيل دافِقِ
أرِيحاً يداوي عُرْفُهُ كلَّ ناشِقِ
و ملعب أترابي، ومجرى سَوَابِقِي
و نَاطَ نِجَاد المَشْرِفِي بِعَاتِقِي
لهم جيرة تَعْتَادُنِي كلَّ شَارِقِي
وودَّعْتُ رِيعَانَ الشباب الغُرَانِقِي³⁷

الغزل

رغم ما وجد في شعر البارودي من محاكات القدماء في الاطلاق والدمن إلا أننا نراه قد تحلل أحيانا من كل تلك القوالب القديمة ، وترفع في نظرتة الى المرأة³⁸ ويقول :

فإنني عفيف الهوى وما كلُّ صَبٍّ يَعِفُّ³⁹

ويقول:

وَالعِشْقُ مَكْرَمَةٌ إِذَا عَفَّ الفَتَى
عما يهيم به الغويُّ الأَصْوَرُ⁴⁰

ويقول:

على أنني لم آت في الحب زَلَّةً
ولكنني طَوَّقْتُ في عالم الصِّبَا
وعدت ولم تَعْلَقْ بِفَاضِحَةٍ أُزْرِي⁴¹
وهو قد أحب حبا لم يورطه في إثم ولا فسوق، لأنه لم يكن حبا جسديا تدفع اليه الغرائز، إنما كان حبا عفيفا كحب فرسان العرب من أمثال عنتره، حبا لاتثور فيه نفسه ولا تجمع عواطفه لما يجري في ضميره من سمو ونبيل وشعور بالكرامة.⁴²

الهجاء

جدد البارودي في هجائه فالهجاء نوعان : شخصي وهو ما تعارف عليه شعراء العربية، و إجتماعي يراد به تجسيم عيب من عيوب المجتمع وتصويره في أبشع صورة رغبة في الاصلاح. والدارس لشعر البارودي يجد نوعين من هذا الهجاء : الشخصي و الاجتماعي ، ولكنه أكثر من النوع الاجتماعي على غير عادة شعراء

العربية، فهو يشكو الناس ونفاقهم وظلمهم وغدرهم، ويصور قومه و يعدد عيوبهم، ويحرضهم على الإصلاح.⁴³

أنا في زمان غادرٍ ومعاشرٍ
يَتَلَوُّونَ تلونَ الجِرْبَاءِ
أعداءٌ غَيْبٍ ليس يسلمُ صاحبٍ
منهم واخوةٌ مَحْضَرٍ وَرَحَاءِ
أَفْبَحُ بهم قوما بَلَوْتُ إِخَاءَهُمْ
فبَلَوْتُ أَفْبَحَ ذَمَّةٍ وإِخَاءِ
قد اصبحو للدهر سُبَّةً نَأِمْ
في كل مصدَرٍ مَحْنَةٍ وبلاءِ
وأشدُّ ما يَلْقَى الفتى في دهره
فَقَدْ الكرامِ وَصَحْبُهُ اللُّومَاءِ
شَقِيَّ ابن آدم في الزمان بعقله
إِنَّ الفضيلة آفة العقلاء⁴⁴
ومن هجاءه الشخصي قوله:

وغدُّ تَكُونُ من لُومٍ ومن دَنَسٍ
فما يغار على عِرْضٍ زلا حَسَبِ
يلتدُّ بالطَّعنِ فيه والهجاء كما
يلتدُّ بالحكِّ والتظفير ذو الجَرَبِ⁴⁵

يعد هذا الهجاء الاجتماعي جديدا في شعر البارودي ، فقد صور في هذا الشعر عصره واناسه تصويرا ملونا بشعره الخاص، وهو الشعر الحقيقي الذي يصور ما يختلج في صدره من عواطف غير متكلفة ولا مصطنعة تقوم على المجاملات والنفاق الاجتماعي والمدح الكاذب.

المخترعات الجديدة

شاهد القرن التاسع عشر كثيرا من المخترعات الحديثة التي جعلت امور الحياة سهلة أمامه. وقد أخذت مصر بنصيب من هذه المخترعات فانتشر فيها مثلا استخدام الكهرباء وآلة التصوير، وعرفت في أواخر ايام البارودي الطائرات، وما شاكل ذلك. وكان البارودي حريصا علي أن يستمد تشبيهاته من هذه المخترعات الحديثة رغبة في الطرافة، وتمثيل عصره، فيقول مثلا⁴⁶:

وسرت بجسمي كهرباءة حسنه فمن العروق به سلوك تخبر⁴⁷
ويقول:

شَقَّتْ زجاجة فِكْرِي فارتسمت بها عليك من منطقي في لوح

تصوير⁴⁸

الأغراض في شعر البارودي

إن أغراض الشعر عند بارودي هي مثلما كانت عليه في الشعر الجاهلي فهو يمدح، ويصف، ويهجو، ويرثي، ويعتب، ويفخر إلى ما هنالك من أغراض معروفة ومألوفة. فلقد حاكى القدماء في أسلوبهم كما حاكهم في أغراضهم⁴⁹، فقال:

أين ليألينا بوادي الغضا ذاك عهد ليته ما انقضى
كنت به من عيشتي راضيا حتى إذا ولَّى عدمت الرضا
أيام لهوٍ وصبا كُلمًا ذكرتها ضاقَ عليّ الفضا⁵⁰
الثناء

لم يرث البارودي الا صديقه وقريبه. وإنما كان رثاؤه منبعثا عن عاطفة صادقة، وليس مفتعلا أو من شعر المناسبات. وعلى الرغم من أن رثاء الشعراء لزوجتهم قليل في الأدب العربي، فإن قصيدة البارودي تعد من عيون قصائد الرثاء، وهي تدل على الوفاء والمحبة وعلى فرط حساسيته، ويقول في مطلعها:

أيدَ المُنُونِ قَدَحَتْ أَيَّ زِنَادٍ وأطرتِ أَيْةَ شُعْلَةٍ بفؤادي⁵¹
ومن أحسن مراثيه في ولده:

كيف طَوْتُكَ المُنُونِ يا ولدي وكيف أودَعْتُكَ التُّرى بيدي
وَأكْبِدِي ، (يا علي) بَعْدَكَ لَوْ كانت تَبَلَّ الغليل (واكبدي)
فَقَدْكَ سَلَّ العِظامِ مَيِّ وَرَ دَّ الصَّبْرَ عَيِّي وَفَتَّ في

عَضْدِي

كم ليلة فيك لاصباح لها سهرتها باكيا بلا مدد⁵²
وقد يأتي البارودي ببعض المعاني القديمة في قصائد شتى كأن يدعو الله أن ينزل الغيث علي قبر الميت،

وماشابه ذلك من الصيغ التقليدية المعروفة. وهو يظهر الجزع و الحزن الشديد دون مبالغة جارفة في النعوت التي يضيفها على الميت.⁵³

المدح

وهو إذا ما مدح لم يقصد بمدحه العطاء، وإنما التعريف بمنزلته، أو الشكر على يد أسديت اليه، أو حث على مكرمة، ومدحه خال من المبالغات المذمومة والنعوت الموهومة، وهذا طبيعي مادام لم يقصد بمدحه صلة أو عطية، لأن

الشعراء إنما لجؤوا الى هذه المبالغات ظنا منهم أنها ستزيد في عطائهم، وأن نفس الممدوح ستسرلها قيغدق عليهم جزيل الهبات.

واقترصر في مدحه على ولات مصر: إسماعيل ، توفيق ، وعباس، وهو في مدحه لاينسى مصر وموقف الوالي منها ، وما قدم لها و مايجري على يديه من خيرات لمواطنيه، فيمدح توفيقا لعزمه على الأخذ بالشورى والعدل.وهو في مدحه لعباس يذكر عدله وأريحيته، وما يرجوا على يديه من نفع، وقد مدح عباسا لأنه عفا عنه وأعادته الى وطنه، فكان لزاما عليه حين يمدحه أن يذكر له هذه اليد الكريمة. أما إسماعيل فقد مدحه حين ولي على أريكة مصر، وقدم نفسه لإسماعيل وأطرافها، وأظهر استعداده لخدمة وطنه. وهناك بعض ما قاله في إسماعيل حين ولي أريكة مصر⁵⁴:

المراء رهن بشاشة وقطوب	طرب الفؤاد وكان غير طروب
أعد الحديث علي فهو حسيبي	ورد البشير، فقلت من سرف المتى
فيها مجال تحف لوجيب	خبر جلا صدأ القلوب فلم يدع
جاءت لها بالأمن بعد خطوب	فلتهن مصر وأهلها بسلامة
مشبوب، بل بالأبلج المعصوب	بالمجاد المنسوب، بل بالأروع ال
وضحت به الأيام بعد شحوب	رب العلاء والمجد (إسماعيل) من
فأضاءها كالكوكب المشبوب	ورد البلاد و ليلها متراكب
تمضي مضاء اللهدم المذروب ⁵⁵	بروية تجلو الصواب وعزمة

الفخر

أما فخر البارودي فلم يتناوله لغرض تقليد الآخرين، بل لدواع تتعلق بشخصيته الطموحة، فلو ينظر في أية قصيدة من قصائده في الفخر لوجد فيها معاني الإباء والشمم، والاعتزاز بالنسب، والتغني بالشجاعة والإشادة بالمواقف الصعبة التي تمثل طموحاته وتجاربه الحياتية. وهو يقول:

أبي الدهر إلا أن يسود وضيعه ويملك أعناق المطالب وغده
تداعت لدرك الثأر فينا ثعالة ونامت على طول الوتيرة أسده
فحتام نسري في دياجير محنة يضيق بها عن صحبة السيف غمده
إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت عليه فلا بأسف من حمام يؤده



علام يعيش المرء في الدهر خاملاً؟ أيفرح في الدنيا بيوم يُعُدُّه
يرى الضيّم يغشاه فيلتدُّ وقعُهُ كذي جَرَبٍ يلتدُّ بالحكِّ جلده
عفاءً على الدنيا إذا المرء لم يعيش بها بَطَلًا يحمي الحقيقة شدُّه
من العار أن يرضى الفتي بمذَلَّةٍ وفي السيف ما يكفي لأمر

يُعِدُّه⁵⁶

الحكمة

وقد أكثر البارودي من قول الحكم ، معظمها حكم غير مبتكرة، وقع عليها السابقون، وصاغها البارودي صياغة جديدة بأسلوبه الجزل الفخم، واورد لها كثيرا من الأبيات السائرة التي صارت كأنها أمثال كقوله:⁵⁷

ومن تَكُنِ العُلَيَاءَ هَمَّةً نفسه فكلُّ الَّذِي يلقاه فيها مُحَبَّبٌ⁵⁸

الخاتمة

من خلال ما ذكرناه سابقا نستطيع ان نلخص رسالة شعر البارودي

تحت عنوانين :

. بعث الشعر العربي وإعادة قوته وإخراجه من دور التصنيع

. بعث الإنسان العربي الذي يعيش إشكالية التخلف

فكل ما قام به البارودي من محدثات في الشعر العربي يرجع الى هذين الهدفين. و من خلال دراستنا لشخصية البارودي و معرفتنا لفكره و اسلوبه وحياته بتأكد لنا انه يستحق بجدارة ان يكون رائدا للشعر العربي الحديث وفي مقدمة رواد عصر النهضة والمثل الاعلى لكل شاعر جاء بعده. ففي الوقت الذي اشتغلت فيه طائفة من الشعراء بتسخير اشعارها لمدح ملوكهم و كبار قومهم تقريبا منهم وكسبا للمال والخيرات ونيل إحسانهم، كان محمود سامي البارودي يعمل على إحياء الشعر العربي الاصيل و العودة الى منابعه وإسترجاع رونقه وجماله، فقد قدم حياته ثمنا لهذه الغاية السامية بحيث تمكن من محاكاة نماذج المجلين من صفوة شعراء العرب، بانيا للشعر العربي الجاهلي اساساته القويمة ومضيفا اليها مميزات اكتسبها في حياته و من خلال تجاربه. وكان طوال حياته يطالب بحقوق شعبه ويحثهم عليها ويدعو امته الى الثورة ضد كل عدو غاشم، حتى أصبح له فيما بعد لقب "صاحب السيف و القلم".

وبهذا يكون البارودي رمزا لشعراء عصره فهو إمام الشعراء المحدثين، وهو رائد النهضة في الشعر العربي الحديث، وهو الزعيم المدافع عن حقوق أمته والمطالب بحريته وهو رمز الصدق الانساني في عصره.

الهوامش:

1. الدكتور ضيف ، شوقي، البارودي رائد الشعر الحديث (مصر، دار المعارف، 2006) ص. 42
2. ضيف، البارودي، ص: 44. لمزيد من المعلومات عن تدريسه انظر: الزيات، احمد حسن ، تاريخ الادب العربية (القاهرة، دار نهضة مصر) ص. 492
3. الزيات، تاريخ الادب، ص: 492
4. الثورة العربية هي الثورة التي قادها احمد عرابي في فترة 1879.1882 ضد الخديوي توفيق والتدخل الاجنبي في مصر.
5. حنا، الفاخوري، الجامع في تاريخ الادب العربي الحديث (بيروت: دار الجيل، 1986) ص. 960959
6. البارودي ، محمد سامي ، ديوان البارودي، ناشر: علي الجارم، محمد شفيق (بيروت: دار العودة، 1998
7. البارودي ، محمد سامي ، مختارات البارودي، مشرف: الدكتور محمد مصطفى هدارة، تحقيق: بدر ضيف، أمين عباد (مصر: الهيئة المصرية الامة بكتاب، 1994)
8. الدكتور هيكل، احمد، تطور الأدب الحديث نفي مصر (القاهرة: دار المعارف، 1994) ص. 13
9. لمزيد من المعلومات في هذا الموضوع انظر: هيكل، تطور، ص. 2218
10. الدكتور ضيف، شوقي، الادب العربي المعاصر في مصر (القاهرة: دار المعارف، 1979) ص. 173.169
11. هيكل، تطور، ص. 26
12. لمزيد من المعلومات في هذا الموضوع انظر ضيف، الادب العربي المعاصر، ص. 17.14، هيكل، تطور، ص. 5251
13. هيكل، تطور، ص. 59
14. انظر لاتجاه التقليدي، هيكل ، تطور، ص. 53
15. هيكل ، تطور، ص. 59
16. الدكتور محمد مصطفى، هدارة، دراسات في الادب العربي الحديث (بيروت: دار العلوم العربية، 1990) ص 20
17. عمر، الدسوقي، محمد سامي البارودي (القاهرة: دار المعارف، 1981) ص. 36
18. عمر، الدسوقي، في الادب الحديث (القاهرة: دار الفكر العربي، 1994) ص 190
19. الفاخوري، تاريخ، ص. 960
20. ضيف، البارودي، ص. 123



21. البارودي، محمد سامي ، ديوان البارودي، ناشر:علي الجارم، محمد شفيق(بيروت: دار العودة، 1998) ص63
22. الدسوقي، البارودي، ص . 38
23. البارودي، ديوان ص . 464 - 465
24. الدسوقي، البارودي، ص . 38
25. البارودي، ديوان، ص. 109
26. البارودي، ديوان، ص. 256
27. البارودي، ديوان، ص. 109
28. الدسوقي، البارودي، ص . 40
29. الدسوقي، في الادب، ص . 195
30. الفاخوري، الجامع، ص. 962
31. البارودي، ديوان، ص. 332
32. الدسوقي، البارودي، ص. 46
33. البارودي، ديوان، ص. 318
34. البارودي، ديوان، ص. 447
35. البارودي، ديوان، ص. 193
36. الدسوقي، البارودي، ص. 49
37. البارودي، ديوان، ص. 390.389
38. الدسوقي، البارودي، ص. 50
39. البارودي، ديوان، ص. 349
40. البارودي، ديوان، ص. 233
41. البارودي، ديوان، ص. 201
- 42- عويضة ، كامل ، محمد ، محمود سامي البارودي،(بيروت، دار الكتب العلمية:1994) ص.80
43. الدسوقي، في الادب، ص.220
44. البارودي، ديوان، ص. 44
45. البارودي، ديوان، ص. 86
46. الدسوقي ، في الادب، ص.224
47. البارودي، ديوان، ص.232
48. البارودي، ديوان، ص.215
49. الدسوقي ، في الادب، ص.190
50. البارودي، ديوان ص. 300
51. البارودي، ديوان، ص.153
52. البارودي، ديوان، ص.160

53. الدسوقي، البارودي، ص . 42
54. الدسوقي، في الادب، ص.228.229
55. البارودي، ديوان، ص. 60
56. البارودي، ديوان، ص. 125.126
57. الدسوق ، البارودي ، ص. 233
58. البارودي، ديوان، ص . 56

